في تحقيق التراث

شعر دعبل بن علي الخزاعي

صنعة الدكتور
عبد الكريم الاشتر
نقد
محمد جبّار المعيبد
مطبوعات المجمع العلمي - دمشق

ظاهرة تلفت النظر في ادبنا العربي القديم ، هي ضياع معظم دواوين « شعراء العقائد » لجميع الفرق الاسلامية ، او ما يسمى بادب المعارضة . و « الشيعة » هذه الفرقة الاسلامية التي وقفت موقفا واحدا بشعرائها ومفكريها طيلة العصرين الاموى والعباسي ، لا نجد شعراءها يسلمون من فقدان دواوينهم الشعرية ، بالرغم من أن هؤلاء الشعراء - كالكميت والسيد الحميرى ودعبل الخزاعي وغيرهم - كانوا يقفون الى جانب شعراء الطبقة الاولى في كلا العصرين .

ودعبل بن على الخزاعى (١٤٨ - ٢٤٦ هـ) يكاد يكون شعره - في أول الامر - اكثر حظا من غيره . اذ بدىء الاعتناء به في حياته هو ، فسجل شعره واهتم به ، كما اهتم به من بعده اولاده الذين كانوا شعراء ايضا .

و (الديوان) الذى نتحدث عنه اليوم ، ما هو الا محاولة من محاولات عدة استهدفت جمع شعر دعبل في ديوان . الا ان هذه المحاولة الاخيرة اتسمت بالدقة العلمية والنظرة الشاملة لتراثنا العربي الذى ضم شعر دعبل . وقد تقدم المحقق الدكتور عبد ألكريم الاشتر بهذا الديوان مع دراسة تحليلية لحياة دعبل وشعره ، فنال بهما اجازة الدكتوراه . والذى يهمنا - هنا - هو الحديث عن (الديوان) الذى قام بصنعه المحقق من مئات كتب التراث العربى ، المخطوط منها والمطبوع .

وقد ضم الديوان مقدمة (٣ - ٣٨) ثم النصوص الشعرية المجموعة (٤٥ - ٣٥٧) فملحقا للتعريف بالاعلام (٣٥٩ - ٤٤٧) اعقبها بالفهارس الفنية (٤٤٩ - ٤٥٨) للاعلام والكتب والقوافي وغيرها .

وقد امتازت المقدمة بعرض شامل علمي اجابت فيه عن جميع الاسئلة . فوجود الديوان قديم يكاد يتصل بحياة صاحبه ، الذى كان يهتم بالشعر والشعراء فالف كتابا في طبقاتهم .

الا ان ابن طيفور (المتوفى ٢٨٠ هـ) كان اول من اقترن اسمه بديوان دعبل ، فوضع كتابا سماه (اختيار شعر دعبل) ربما اجتزاه من ديوان للشاعر كان موجودا قبل كتابه . ولكن محاولة ابى بكر الصولى (المتوفى ٣٣٥ هـ) القريبة عهدا نوعا ما من عصر الشاعر ، كانت المحاولة الجدية الاخيرة لجمع شعر دعبل في ديوان ضم اسمه ، احتوى على ثلاثمائة ورقة تضم نحوا من عشرة الاف بيت .

وقد تردد ذكر الديوان عند الكثير من المتاخرين امثال ابن عساكر وياقوت وابن النديم وغيرهم ، عرفه البعض من هؤلاء واطلع عليه ، ونقل البعض الاخر عمن شاهده واطلع عليه . الا ان ذكره انقطع ولم نجد ما يؤكد على وجوده قبل القرن العاشر الهجرى . « ولعل لعقيدة الشاعر التى يصورها شعره في قوة وينفح عنها ويهجو خصومها . ولموقفه السياسى من احداث التاريخ وتعصبه لليمنية وطعنه على النزارية وقريش صلة بأسباب ضياع الديوان » كما يقول المحقق .

وبذلت الجهود للعثور على الديوان المفقود ، انتهت بمحاولات من بعض الباحثين الى جمع ما تفرق من هذا الديوان من كتب التراث العربى . وأول هؤلاء هو الشيخ محمد السماوى النجفي (المتوفى ١٩٥٠ م) اذ جمع شعر دعبل من مصادر مجهولة لنا . فهو لا يذكر اى مرجع تاريخى او ادبى اعتمده في جمعه . ولا تزال هذه المجموعة مخطوطة في احدى المكتبات الخاصة في النجف . والثانى هو السيد محسن الامين العاملى الذى اصدر دراسة عن دعبل لاتتصل بالبحث العلمى بصلة ، ضمنها ما جمعه من شعر الشاعر من بعض المصادر . والثالث هو المستشرق الدكتور ليون زولندك الذى قام بجمع شعره ونال به درجة الدكتوراه من جامعة شيكاغو بالولايات المتحدة .

أما الرابع فهو الاستاذ عبد الصاحب الدجيلي الذى طبع الديوان فى النجف فى العراق سنة ١٩٦٢ م ، والخامس هو الدكتور محمد يوسف نجم الذى أصدر مجموعته بعد نشرة الدجيلي بثلاثة أشهر .

وقد علق الدكتور الاشتر على هذه المجموعات بانها «مجموعات صغيرة كان يمكن أن تغنى كثيرا لو اتيح لاصحابها أن يطلعوا على مصادر ـ من المخطوط والمطبوع ـ لم يتيسر لهم الاطلاع عليها ، فوقعت مجموعاتهم ـ ما خلا مجموعة الدجيلي ـ فيما دون الالف من الابيات المختلطة ، فيها المنحول الصراح . والمختلف عليه والمشكوك فيه . وهم ـ من ناحية أخرى ـ لم يوفقوا الى الاخذ بمنهج علمي محدد فى جمع الشعر وتحقيقه. والذى ميز فيهم بين المختلف عليه من شعره وغير المختلف عليه ـ وهوالدكتور نجم ـ لم يتثبت من مراجعه فلم يعد لتمييزه هذا سند .

وبعد نظر طويل فى المطبوع والمخطوط من تراثنا جاوز السنتين ، وجمع ما تفرق من شعر دعبل فى هذه الكتب ، قسم المحقق النصوص المجموعة لديه الى اقسام اربعة :

القسم الاول : يضم الشعر الذى نسب الى دعبل ، ولم ينسب الى غيره ، وما تحقق من نسبته لدعبل . وجعل لهذا القسم ذيلا يضم شعر الحكايات .

القسم الثاني : يضم ما انفردت كتب الشيعة بروايته منسوبا الى دعبل ، مما يكون فى آل البيت .

القسم الثالث : يضم ما اختلفت المصادر فى نسبته للشاعر .

القسم الرابع : يضم ما نسب الى دعبل من شعر فى بعض المصادر خطأ وتحققت نسبته الى غيره .

وقد درس المحقق هذه الاقسام الاربعة دراسة نقدية جادة ، فبلغ مجموع الشعر فيها (١٥٥١) بيتا . صح عنده من هذا الشعر حوالى (الف بيت) ، بعد أن اسقط أكثر المشكوك فيه والمختلف عليه وما انفردت بروايته كتب الشيعة . وانتهى الى « ان الايام المقبلة قد تغير من صورة هذا الشعر قليلا فتنفى بعضه وتفصل فى نسبة بعض المختلف عليه وتحول بعضه من قسم الى قسم .. وكذلك نعتقد ان شعرا صحيحا ـ قد يكون كثيرا ـ سيزاد على القسم الاول مع البحث والالتفات الدائم الى العمل فان مثله لا يتم بعمر الفرد .. »

والديوان مجهود علمي رائع ، استطاع المحقق بما لديه من جلد علمي أن يأتي بنتائج لا تتحقق الا بالصبر الطويل والعمل الدائم والمعاناة الحقة . وقد وجدت خلال قراءتي للديوان بعض النواحي التى لم يستكملها البحث العلمي ، ووجدت ايضا ان على مناقشة هذه النواحى لتوصل هذا البحث الممتاز الى مانود من الكمال . وقد أوجزت ملاحظاتي بما يأتي :

١ ـ مدى شمول هذا البحث لمصادره ، المخطوطة بخاصة .

٢ ـ مدى اعتماده مجموعة السماوى المخطوطةواستفادته منها.

٣ ـ العثور على شعر جديد يضاف الى بعض اقسام الديوان .

٤ ـ تصحيح بعض الاخطاء التى وردت فى الديوان ، وخاصة فى الاعلام .

١ ـ والدكتور الاشتر أسعد حظا من غيره ممن جمع شعر دعبل ، ذلك لانه وجد أمامه مجموعات سبقته فيسرت له بعض الطرق واختصرتها . وكتاب (تاريخ الادب العربى) لبروكلمان ، أطلع عليه المحقق وذكره ضمن مصادره . ترى هل تتبع ماذكر بروكلمان من قصائد مخطوطة فى بعض المكتبات العالمية ؟ .. فهو يذكر ـ أى بروكلمان ـ قصيدة مخطوطة طويلة لدعبل فى مكتبة برلين ٧٥٣٩ رقم ٣ ، ولم نجد فى مصادره أنه اعتمد أو أطلع على هذه المخطوطة . والبحث العلمي يقتضى منه الاطلاع عليها ، أو التنبيه الى وجودها فى حالة عدم الحصول عليها . وقد ذكر الدجيلي فى مقدمته أنه حصل على هذه القصيدة ، وكانت قطعة من التائية . كما ذكر بروكلمان قصيدة أخرى للشاعر فى مكتبة امبروزيانا بميلانو رقم C. 56,11

ثم أن الدجيلي ذكر ضمن مصادره مجموعتين مخطوطتين فى المكتبة الرضوية بخراسان ،الاولى برقم (١٠٦) والثانية برقم (٤٥٠٩) . والمجموعة الاولى انفردت برواية بعض الابيات التى لا توجد فى مصدر آخر . ويبدو أنها هى التى سماها محسن الامين فى مجموعته ب (مجموعة الامثال التى فى الخزانة الرضوية) وأيده الدكتور الاشتر على ذلك .

وقد استفاد المحقق مما فى هاتين المجموعتين ، وخاصة الاولى . والاستفادة كانت نقلا عن الدجيلي . ولا اظن البحث العلمي يسمح له بذلك ، اذ من اين لنا أن نعرف أن الدجيلي او الامين استفادا منها الفائدة التامة ؟ يؤيد ذلك أن الدجيلي ذكر بعض الابيات ـ نقلا عن المجموعة الاولى ـ لانجدها عند الامين . ووجدنا عند الامين ما لم نجده عند الدجيلي . وهذا يظهر مدى السطحية التى نظر بها كل من الامين والدجيلي الى هاتين المجموعتين . مع هذا كله نجد المحقق يضع بعض القطع (القطعة ١٢٧ ـ ص ١٣٣) فى القسم الاول المقطوع بنسبة شعره الى دعبل .

٢ ـ أما مجموعة السماوى فهى اقدم المحاولات الموجودة لجمع شعر دعبل. ولم يعطنا المحقق رأيا فيها أو وصفا لها(١)، خاصة وانه قد اعتمدها فى بعض القصائد التى انفردت بها هذه المجموعة . وهذا يعنى توثيقها ، وقد وصفها الدجيلي فى مقدمته بانها « لم تسلم من التحريف والتصحيف ، وليس فيها ذكر لاى مرجع تاريخى اعتمده فيما جمعه ، كما أنه لم يذكر اى خبر أو رواية فيما جمعه من شعر دعبل مما يتعلق به » . والشيخ السماوى ـ كما ذكرنا ـ معاصر توفى سنة ١٩٥٠ م ، ومجموعته ليس لها قيمة علمية ، واعتمادها بهذه الصورة التى نجدها عند المحقق تعنى اندفاعا غير مأمون منه . فالقطعتان ـ مثلا ـ (٥٧ و ١٨٥) لانجد فى تخريجهما الا مجموعة السماوى ، وضعتا ضمن القسم الاول الذى « تحقق المحقق من نسبته لدعبل » ، ومثلهما مقطوعات أخر . وهذا يعنى اعترافا منه بقيمتها . كما أننا لاندرى : هل عد المحقق هذه المجموعة من مصادر الشيعة أم من غير مصادرها ؟ اذ أن هنالك قصائد قد انفردت بها مجموعة السماوى وضعت فى القسم الاول (القطعتان ٥٧ و١٨٥) ، وقصائد اخرى انفردت بها ايضا وضعت فى القسم الثانى (القطعتان ٣ و ٥) .

٣ ـ وقبل ذكر ما عثرنا عليه من شعر لم نجده فى (الديوان) ،

---

(١) ذكر المحقق انه نشر نقدا لهذه المجموعة والمجموعات الاخرى فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، وهذا لايعفى أبعادها من ميزان نقده خلال مقدمته .

نذكر قول المحقق « وما نشك أن الايام المقبلة قد تغير من صورة هذا الشعر قليلا .. كما نعتقد ان شعرا صحيحا – قد يكون كثيرا – سيزاد على القسم الاول ، مع البحث والالتفات الدائم الى العمل .. » نذكر هذا حين نذكر ما جمع الصولى من شعر دعبل الذى يقرب من عشرة آلاف بيت لم يسلم لنا الا حوالى الالف بيت .

كذلك ملاحظة أمر آخر هو التاكيد على نص اختلاف المصادر فى رواية بعض القصائد أو الابيات . وقد وجدت أن المحقق اعتمد على بعض المصادر دون تسجيل الفرق بينها وبين المصادر الاخرى .

ا) فمن المصادر التى حوت شعرا لدعبل يمكننا اضافته الى القسم الاول ، كتاب (تلخيص مجمع الاداب فى معجم الالقاب) (١) لابن الفوطى (المتوفى ٧٢٣ هـ) . ففى ترجمة أبى الفضل الحسن بن جعفر البلدى يقول « روى قصيدة دعبل بن على الخزعى التى نظمها فى مدح على الرضا بن موسى الكاظم التى أولها :

(٢) ....

بدأت بحمد الله والشكر أولا
أمام هدى لله يعمل جاهدا
ذخائره التقوى ونعم الذخائر
أمام سما للدين حتى اناره
وقد مح عنه الرسم والرسم دائر
عليهم بما يأتى أبى موفق
مبير لاهل الجور للحق ناصر

ب) فى ديوان السموءل (٣) (ص ٢) بيت جديد لدعبل من قصيدته الطويلة (أفيقى من ملامك يا ظعينا) التى ناقض بها الكميت ، والبيت هو :

وما مثل السموءل فى نزار
ألا هيهات قد قطع القرينا

ج) القطعة ١٣٣ ص ١٣٨ ، بالرغم من أن كتاب (أدب الكتاب) للصولى من مصادرها ، فان المحقق لم يلتفت الى الفروق بين كتاب الصولى والمصادر الاخرى ولم يسجلها فى الهامش ورواية البيت الاول فى أدب الكتاب :

الا أبلغ أمير المؤمنين محمدا
رسالة ناء عن جنابيه شاحط

بينما الرواية الاخرى :

الا أبلغا عنى الامام رسالة
. . . . الخ

والرواية الاولى تذكر صراحة (الخليفة الامين) مما يجعلنا نحدد زمنها ، لا سنة ٢٣٢ هـ كما سجل المحقق فى نهاية القصيدة . اضف الى ذلك اننا ازاء رواية (الصولى) وهو الراوية الاول للديوان ، التى يجب أن ناخذها بعين الاعتبار .

(١) ص ٦٤ – ٦٥ الجزء الرابع – القسم الاول ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد – دمشق ١٩٦٢

(٢) كذا فى الاصل بياض .

(٣) ديوان السموءل ، مطبعة المعارف – بغداد ١٩٥٥ .

د) القطعة ١٣٦ ص ١٤١ يرويها فى ارشاد الاريب ١٧٢/١ منسوبة الى (سوادى من أهل العراق) بالاضافة الى روايتها فى مكان آخر ونسبتها لدعبل . وتمتاز هذه الرواية باختلاف فى الالفاظ وتقديم بيت وتأخير آخر . وربما تخرج هذه النسبة الجديدة القطعة من القسم الاول .

هـ) القطعة ١٧٣ ص ١٦٩ موجودة فى المخطوطة الرضوية (كما ينقل الامين) لم يعتمدها المحقق فى تخريجه مع وجود خلاف فى البيت الثانى .

و) القطعة (٢٠) ص ٣٥١ تنسب أيضا الى خالد الكاتب (زهر الاداب ٩٢٠/٤) والى حبيب (شرح المقامات للشريشى ١١/٢) ولابى دلف العجلى (الامالى ١٠٨/١ ، وسمط اللآلىء ٣٣١) .

٤ – وهناك بعض الاخطاء والاوهام – مطبعية أو غير مطبعية – وقعت فى أسماء الاعلام ، ففى القطعة (١٧) ص ٣٥٠ ، انها نسبت أيضا فى الاغانى ل (اسماعيل بن يسار) والصحيح ل (اسماعيل بن عمار الاسدى) – انظر الاغانى ١٢٨/١٠ . كالعصا) بضم الزاى ، والصحيح (زمردة) بفتح الزاى وكسرها وتشديد الميم المفتوحة ، وهى فى الفارسية (زنمردة) يراد به المراة المترجلة أو الصخابة السليطة . ويقال لها أيضا (زنمردة) بكسر الزاى وفتح الميم وبفتح الزاى وكسر الميم (انظر المعرب للجواليقى ١٦٨) .

وفى القطعة نفسها جاء اسم (كندش) وضعه المحقق فى فهرس الاعلام بانه اسم رجل ، وقد فسرته المعاجم وكتب اللغة بانه العقعق وهو طائر معروف بالسرقة يشبه الغراب ، ومعنى البيت يتلاءم وهذا التفسير .

وفى القطعة نفسها أيضا أنها نسبت الى (أبى المفطش الحنفى) ، والصحيح الى (أبى الفطمش الحنفى) – انظر شرح الحماسة للمرزوقى ١٨٨١ ، واللسان – مادة (كندش). واخيرا ..

لابد لنا من نظرة عاجلة لمصادر الكتاب ، وتمتاز باستقصاء شامل للمخطوط والمطبوع . الا أننا لانجد عذرا للمحقق باعتماده على بعض الكتب القديمة وغير المحققة ، فهو – مثلا – يعتمد على البخلاء للجاحظ – طبعة دار الكتب ، مع وجود نشرة محققة طبعت مرتين بتحقيق الدكتور الحاجرى ، ومثله كتاب (التصحيف والتحريف) للعسكرى اعتمد على طبعة قديمة طبعت سنة ١٩٠٨ الجزء الاول فقط ، مع وجود الكتاب تاما ومحققا ، وقد طبع سنة ١٩٦٣ . كما ذكر أن كتاب (تزيين الاسواق) لداود الانطاكى طبع على هامش كتاب (ديوان الصبابة) لابن أبى حجلة ، والعكس هو الصحيح . ثم انه يؤكد فى قائمة مصادره أن (أبا حيان التوحيدى) توفى سنة ٣٨٧هـ وهذا مالم يقل به أحد ، وآثار التوحيدى تدل انه توفى فى حدود سنة ٤٠٠ هـ .

وبعد .. فهذه ملاحظات سريعة ، لاتقلل من الجهد الذى بذله الاستاذ المحقق ، آثرنا ابداءها لعلها تسهم فى تقويم بعض الهنات فى هذا العمل الجليل . وكلى أمل أن يتقبل الاستاذ المحقق هذه الملاحظات بصدر رحب ، وسيبقى هذا الكتاب شاهدا على دقة التحقيق العلمى فى نشر تراثنا العربى .